ميشال نوفل

عن عرفات والنروج وإسرائيل: ولادة "عملية أوسلو" وموتها

برزت النروج على المسرح الدولي بصورة مفارقة خلال الفترة ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤؛ الوجه الأول للصورة كان يتمثل في الاحتجاج الدولي على الصيد التجاري للحيتان، وذلك عبر لافتات مناهضة للنروج أمام العديد من سفاراتها حول العالم، وقد صُوّرت النروج في هذه الحملة الواسعة النطاق، على أنها الدولة المتوحشة التي تتجاهل الرأي العام العالمي، وتحديداً صوت الناشطين البيئيين. أمّا الوجه الآخر فكان يتعلق بكشف القناة النروجية السرية التي سعت لتحقيق تفاهم بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، في إطار دبلوماسية استثنائية من أجل السلام.

المفارقة في هذه الصورة النروجية لها تاريخ طويل في الشؤون الخارجية للدولة، إذ كان هذا البلد الصغير يبدو في موقف الدفاع الشرعي عن مصالحه القومية في وجه الاحتجاج العالمي الأخلاقي، محاججاً بثبات أن الحيتان ليست في الواقع من الحيوانات المهددة بالانقراض. وكانت النروج، من الجهة الأُخرى، تُعتبر واحدة من القوى المتوسطة الكلاسيكية التي يمكن أن تساهم في تحسين أوضاع العالم بسبب مثاليتها وابتعادها عن أي سلوك عدواني.

طرأت

تحولات رئيسية في توجهات سياسة النروج الخارجية منذ تفكك الاتحاد مع السويد في سنة ١٩٠٥. فقد اتبعت سياسة رافضة للأحلاف قبل سنة ١٩١٤، وسياسة حياد خلال الحرب العالمية الأولى، والتزام مفهوم الأمن الجماعي في إطار "عصبة الأمم" بين الحربين، وتحالفاً مع الفريق المناهض للنازية خلال الاحتلال الألماني في إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ ـ ١٩٤٥)، ثم محاولات لبناء جسور الثقة المتبادلة بين تكتلات القوى الجديدة (١٩٤٥ ـ ١٩٤٩)، وأخيراً الانضمام إلى منظمة حلف شمال الأطلسي منذ سنة ١٩٤٩.

ما ترسب من التحفظات عن سياسة الأحلاف الرسمية، لم يغادر الدبلوماسية النروجية، وحتى عندما جرى التخلي رسمياً عن استراتيجيا "بناء الجسور" بين

الشرق والغرب في سنة ١٩٤٩، فإن النروج ظلت تحاول الاضطلاع بدور الوسيط غير الرسمي على حوافي حلف شمال الأطلسي؛ وكانت الحجة العقلانية وراء ذلك، أن النجاح في بناء جسور الثقة يفترض التموضع الحازم في إحدى الضفتين. وعلى هذا المنوال، رفضت النروج، لاعتبارات تتعلق بعدم استفزاز الاتحاد السوفياتي، استقبال قواعد عسكرية حليفة في زمن السلم، كما رفضت استقدام أسلحة نووية إلى أراضيها، أو السماح لقوى حلف الأطلسي "الناتو" بإجراء مناورات قبالة الحدود الروسية في أقصى الشمال الشرقي لإسكندنافيا. كذلك ساندت الدبلوماسية النروجية بناء سياسة فاعلة للضمانات، مثل الخطط لإقامة مناطق منزوعة السلاح النووي وسط أوروبا وشمالها، وأدت دوراً نشطاً جداً بين البلاد الصناعية من أجل زيادة مساعدات التنمية وإنشاء نظام اقتصادي عالمي ينصف المناطق غير الصناعية في العالم.

غير أن فكرة الاضطلاع بدور الوسيط أو المسهّل في تسوية النزاعات الدولية، تبقى خاصية الدبلوماسية النروجية (وإن كانت موجودة لدى دول متوسطة أُخرى)، والحجة الرسمية في هذا الشأن أن النروج كدولة مسالمة لديها مميزات خاصة في الشؤون الدولية نتيجة شبكة علاقاتها وقدرتها على اكتساب ثقة الأطراف كافة. وبفضل هذه الصفات استطاعت أن تنشط علانية وتحت الطاولة في شمال أفريقيا في خمسينيات القرن الماضي، وفي جنوب أفريقيا في العقود اللاحقة، وفي أميركا الوسطى منذ الثمانينيات، وفوق ذلك كله في الشرق الأوسط منذ قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين عقب الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من محدودية التمثيل الدبلوماسي النروجي في العالم، فإنه جرى في التسعينيات تعاون وثيق بين المنظمات الإنسانية غير الحكومية مثل الصليب الأحمر وهيئات الإغاثة الخاصة من جهة، والبيروقراطية الحكومية من جهة أُخرى. وشهد هذا التعاون زخماً خاصاً في مناطق النزاع في أميركا الوسطى وفي أفريقيا الجنوبية والسودان، وكانت هذه البداية لـ "نموذج نروجي" في الدبلوماسية الدولية.

النروج والشرق الأوسط: من إسرائيل إلى فلسطين

الدور الخاص الذي قام به الدبلوماسيون النروجيون في "القناة الخلفية" للحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، لم يأت من فراغ، وإنما كان تتويجاً لنحو ٤٠ عاماً من الاتصالات والصداقة بين دوائر نافذة في النروج ومنطقة الشرق الأوسط. فقد حازت إسرائيل جاذبية عاطفية في النروج في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك لأسباب تتعلق بحالة الشعور بالذنب حيال الكارثة التي تعرض لها اليهود في النروج وأوروبا، والإعجاب الشديد بما اعتُبر سلوكاً إسرائيلياً "بطولياً" في حرب النكبة، والطابع "الصهيوني الاشتراكي" لدولة المستوطنين الجدد؛ وصارت مجموعة "أصدقاء إسرائيل" عابرة لجميع الأحزاب في البرلمان النروجي والحركات الدينية، بينما ارتبطت الحركة العمالية النروجية بوشائج قوية مع شركاء لها في إسرائيل، وقامت علاقات شخصية وثيقة بين السياسيين والزعماء من الجانبين تعدّت نطاق الأحزاب العمالية، وكان شمعون بيرس أبرز عنصر في شبكة العلاقات القوية مع زعماء الحركة العمالية النروجية منذ خمسينيات القرن

العشرين.

أمّا العلاقة الفلسطينية بحزب العمال النروجي، فحديثة أكثر، وتطورت بصورة بطيئة ومتدرجة منذ نهاية السبعينيات، وإن ظلت موضوعاً خلافياً داخل الحزب النروجي لنحو عقد من الزمن؛ المبعوث الرسمي الأول الذي التقى الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات كان من الشخصيات القيادية في القناة السرية النروجية، وهو يوهان يورغن هولست الذي كان يُعتبر الرجل الثاني في وزارة الدفاع في سنة ١٩٧٨. وشهدت الثمانينيات اتصالات على مستوى رفيع بين الجانبين، وحتى محاولات نروجية من أجل وساطة سرية بين منظمة التحرير الفلسطينية والمعارضة الإسرائيلية. وقام تورفالد شتولتنبرغ بزيارة رسمية لعرفات في سنة ١٩٨٩ بصفته وزيراً للخارجية في الحكومة العمّالية، بينما عقد خلَفُه هولست روابط شخصية مع قيادة منظمة التحرير.

وحتى لو كانت الدوائر الأكثر تشدداً في تأييد إسرائيل في النروج معارضة لأي تقارب مع منظمة التحرير، فإن السياسيين العمّاليين القياديين النروجيين كانوا حريصين على عدم انتقاد الدوافع والاعتبارات الإسرائيلية في نقدهم للسياسة الحكومية. وبذلك تكون الحكومة العمالية في النروج قد حاولت الموازنة بين مجموعات الضغط المؤيدة للفلسطينيين، وتلك المؤيدة للإسرائيليين في أوسلو، وذلك على نحو يرضي المعتدلين من الجانبين في الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

هذه باختصار الخلفية التاريخية للقناة النروجية السرية التي زاد في أهميتها تطورات ظرفية منحت الدبلوماسية النروجية الحيز الضروري للمناورة. ويأتي في مقدم هذه التطورات، ظهور هامش أوسع داخل حلف الأطلسي بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين عقب الحرب الباردة، وإن ظلت المشاغل الأميركية مهمة لأسباب سياسية ودبلوماسية. غير أنه بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، بدا أن هناك حساسية خاصة إزاء الأبعاد الأمنية الواسعة للصراع العربي ـ الإسرائيلي. وأكثر من ذلك، فإن مفاوضات واشنطن، في سياق عملية مدريد، بلغت طريقاً مسدودة، ويبدو أن الدبلوماسية الأميركية التي كانت على علم بالقناة النروجية السرية، لم تتابع تفصيلات "عملية أوسلو" كما كانت تقضي ربما ظروف الحرب الباردة.

أمّا في السياق الأوروبي، فإن النروج كانت تتمتع بحرية الحركة الكاملة، ونظراً إلى عدم عضويتها في الاتحاد الأوروبي، فإنها لم تكن بحاجة إلى تنسيق النشاطات مع فرنسا وبريطانيا وألمانيا، أو أي دولة أُخرى في الاتحاد.

في تلك الأثناء، تركت السويد دورها على المسرح الدولي شاغراً، بعدما كانت الدولة الشمالية المناضلة من أجل الرسالة الأممية والسلام وإدارة النزاعات البعيدة، وخصوصاً خلال أعوام رئيس الحكومة أولاف بالمه. وبعد اغتيال بالمه جاءت حكومة جديدة، وصار حزب العمال في المعارضة، ولم يعد الحياد، وهو حجر الزاوية في السياسة الخارجية السويدية، عملة سياسية قوية عقب انتهاء الحرب الباردة. أكثر من ذلك، كان هناك اختلافات مهمة بين الدبلوماسيتين النروجية والسويدية؛ فالطابع الرسالي للدبلوماسية السويدية لم يكن موجهاً نحو السرية، وخلافاً لذلك كان يجري التكتم على تجارة السلاح، ونشاطات أُخرى مشكوك في معيارها الأخلاقي، بينما كان الجانب الأخلاقي للدبلوماسية موضع مجاهرة وإعلان. والاختلاف البارز أن الحكومات

العمالية السويدية أقامت باكراً اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية على حساب صداقتها مع إسرائيل، الأمر الذي جعل السياسيين السويديين في موقع أضعف من شركائهم النروجيين لنيل الثقة من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي في آن معاً. ولقد ورثت النروج شيئاً من صورة السويد الرسالية، في الشرق الأوسط تحديداً، لكن بمقاييس أُخرى ومزاج مختلف.

لا شك في أن تاريخ القناة النروجية المفضية إلى اتفاق أوسلو، ينطوي على قصة مثيرة عن وجه من السياسة الخارجية للنروج يتعلق بالمثالية الرسالية والسعي لتحقيق مهمات أممية كبرى، وكيف أنه يمكن لدولة صغيرة بفضل "الدبلوماسية المتخصصة"[1] النجاح في العمل كقوة متوسطة في الشؤون الدولية. لكن الحصيلة النهائية في ميدان الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والفلسطيني ـ الإسرائيلي، تحكي قصة أُخرى عن سقوط "عملية أوسلو" وموتها، وإن كانت السلطات النروجية ترفض الاعتراف بذلك خوفاً على صورتها في العالم.

كان هذا المستوى الأول لقراءتي للسياسة النروجية الملتبسة، مستعيناً بأبحاث تاريخية ونظرية بشأن الدبلوماسية النروجية في الشرق الأوسط، وذلك بعد عقود من علاقات التفاعل السياسي والحوار الثقافي العميق مع أصدقاء نروجيين من الناشطين السياسيين، والدبلوماسيين، والأطباء والأساتذة الجامعيين.[2]

على أن تنبيهات وشكوك اليسار النروجي المؤيد لعدالة القضية الفلسطينية وقطاعه الناشط في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني، دفعتني إلى الخوض في المستوى الثاني الذي يرتدي طابعاً نقدياً عبر مواكبة الأبحاث التاريخية للبروفسورة

هيلدي هنركسون فوجي

هيلدي هنريكسون فوجي، وصراعها المتواصل مع السلطة والمؤسسة الحاكمة لكشف حقيقة القناة النروجية السرية التي أُنشئت من أجل تسهيل المفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، والأسباب العميقة لفشل "عملية أوسلو".

القراءة النقدية للتاريخ

تتحدث البروفسورة المتخصصة بالشؤون الإسرائيلية ـ النروجية إلى "مجلة الدراسات الفلسطينية" بنبرة محمومة وأسلوب دقيق يشدد على كل كلمة في الخطاب كأنها في محكمة للتاريخ أمام الشعب الفلسطيني أو ممثليه، أو هي تدرك المسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقها كمؤرخة تشمل أبحاثها علاقات القوة بين إسرائيل وفلسطين، وتجهد لتعلّم العبرية في القدس سعياً للغوص المباشر في الأرشيف الإسرائيلي.

تروي بداية أنها كانت في الـ ٢٧ من عمرها، وتعمل في معهد أبحاث السلام في أوسلو (PRIO)، عندما استطاعت أن تصل إلى الملفات السرية لوزارة الخارجية، ووضعت دراسة عن السياسة النروجية إزاء إسرائيل (١٩٤٥ ـ ١٩٤٩) خلُصت فيها إلى أن الحكومة النروجية كانت الداعمة الأقوى لإسرائيل منذ إعلان انشائها في سنة ١٩٤٨.[٣] وأثارت هذه الدراسة غضب وزارة الخارجية النروجية التي أرادت أن تحيلها إلى المحاكمة بتهمة التشهير ما لم تغير استنتاجات الدراسة في ٤٠ نقطة. وكان طبيعياً أن ترفض المؤرخة الملتزمة أصول البحث العلمي الموثق، التعديل المطلوب والضغوط المرافقة، واستمرت المشكلة نحو أربعة أعوام مُنعت خلالها هيلدي هنريكسون فوجي من نشر دراستها، إلى أن تدخّل وزير الخارجية في حينه تورفالد شتولتنبرغ محذراً المعنيين في الوزارة ورجال القانون من أن هذه القضية تسيء إلى سمعة مؤسسته، وداعياً إلى التوقف عن مضايقة الباحثة وترك الحرية لها لنشر دراستها. وقد تم ذلك فعلاً، وتولت نشر الدراسة إحدى أكبر دور النشر في النروج في سنة ١٩٨٩.

وفي إطار عملها على أطروحة الدكتوراه عن السياسة النروجية في الشرق الأوسط (١٩٤٩ ـ ١٩٥٦)،[٤] استخلصت الباحثة من تحليل الملفات السرية للسياسة الخارجية في أرشيف وزارة الخارجية، أن النروج كانت متعاطفة مع إسرائيل إلى درجة الاستعداد للقيام بأي خطوة لمساعدتها؛ فعلى سبيل المثال أراد المسؤولون النروجيون انتهاك سياسة الدولة في تجارة السلاح وتزويد إسرائيل بـ ٣٤ طائرة من طراز "فامباير" القديم، ولم يُعرف في النهاية ما إذا كانت الصفقة تحققت، أو أن الطائرات ذهبت إلى تجار الخردة. في ذلك الوقت تمكنت إسرائيل من الحصول على ٢٠ طناً من المياه الثقيلة النروجية لتطوير سلاحها النووي، وكان "الرجل القوي" في النروج هاكون لي، الأمين العام لحزب العمال المعروف بتأييده الشديد لإسرائيل واتصالاته الوثيقة بالإسرائيليين في لندن وتل أبيب، هو مَن اتخذ المبادرة في سنة ١٩٥٦ لإطلاق حملة "دعوا إسرائيل تحيا" التي كان يُفترض أن تتعدى حدود بلده لتصبح حملة عالمية. واعتبر الزعيم العمالي، مثله مثل الحكومة النروجية، أن إسرائيل تواجه خطراً وجودياً في الشرق الأوسط يهدد أيضاً مصير اليهود فيها. ومنذ سنة ١٩٥٦ ظهر في مقدم المسيرة العمالية التقليدية في مناسبة ذكرى أول أيار / مايو لافتة كبيرة عليها "دعوا إسرائيل تحيا"، وكانت جميع تفصيلات البرنامج المعدّ لحملة إنقاذ إسرائيل تأتي إلى حزب العمال النروجي من الإسرائيليين في الخارج. ولذلك سألت هيلدي هنريكسون فوجي الأمين العام لحزب العمل: كيف يمكن أن يفرض عليكم الإسرائيليون ما يتعين أن تفعلوه في مسيرة الأول من أيار / مايو؟ وتصورت للحظات أن هذا السؤال سيثير غضبه، لكنه رد ببساطة: "هل تعتقدين أنه يمكن أن أضع برنامج هذه المسيرة بمفردي! الإسرائيليون هم الذين يقودوننا ويدلونا على الاتجاه الذي يجب أن نسلكه، ونحن في المقابل نقدّم لهم القهوة وقطع الحلوى. هم الذين يقولون لنا ماذا علينا أن نفعل!"

تراءى للمؤرخة هذه المرة، أن مشكلتها مع السلطة مرشحة لمزيد من التعقيد بعدما تجاوزت وزارة الخارجية إلى حاضنة السلطة، أي حزب العمال الحاكم الذي كان يهيمن على السياسة النروجية منذ الحرب

العالمية الثانية. وقد رأى الحزب الحاكم أن البروفسورة هيلدي تعرّض للخطر ما يعتبره "أهم بضاعة للتصدير" وهي "مفاوضات السلام"، في الوقت الذي كان النروجيون جميعاً يتابعون باهتمام دور بلدهم في عملية السلام في الشرق الأوسط من زاوية "نجاح الدولة الصغيرة الجميلة، بفضل جهود تيري رود لارسن[٥] عبر قناة أوسلو الخلفية، في جمع ممثلي إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية"، الأمر الذي سيسفر عن اتفاق أوسلو، أو اتفاق إعلان المبادئ، مدخلاً إلى إقامة سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية، والاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير.

لم يكن غريباً أن أحداً في الإعلام النروجي أو في المجتمع المدني، لم يتجرأ على طرح السؤال: لماذا كانت هذه العملية وكيف؟ "الأرجح أن الناس عندنا لم يكونوا على بيّنة من الخلفية التاريخية للموضوع، ولذلك عرضتُ [والحديث لهيلدي] في تقرير يحمل عنوان 'النروجيون؟ مَن يحتاج إلى النروجيين؟'[٧] السياق التاريخي الشامل الذي أتاح بناء القناة الخلفية بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وكانت حجتي الأساسية أنه ليس ممكناً القول إن تيري رود لارسن هو صانع المعجزات، وتالياً صاحب معجزة السلام بين إسرائيل وفلسطين، مع أنه ذكي وشاطر وجذاب. كنت الوحيدة في رفع الصوت بينما كانت النروج كلها معجبة بإنجاز لارسن. طرحت أسئلة عدة، وذهبت إلى الأرشيف حيث اكتشفت أن القناة الخلفية لم تكن فكرة لارسن أو النروج، مثلما لم تكن فكرة إسرائيل، بل إن ياسر عرفات هو الذي اقترحها."

وجدت الباحثة في أرشيف وزارة الخارجية النروجية أنه في سنة ١٩٧٩ عقب الثورة الإسلامية في إيران، بدأت أوسلو بإرسال جنود "القبعات الزرق" إلى الجنوب اللبناني في إطار قوات اليونيفيل، وأن إسرائيل فقدت إيران كمصدر رئيسي للنفط، الأمر الذي دفع الإدارة الأميركية إلى مطالبة الحكومة النروجية بأن تحل مكان إيران في تزويد إسرائيل بالنفط. ويبدو أن أوسلو أصيبت بالهلع لأن القلق الرئيسي لديها كان يتعلق بحماية جنودها في لبنان، فضلاً عن الشعور بأن تزويد إسرائيل بالنفط من بحر الشمال لم يكن فكرة جيدة سياسياً. عندها تقرر إرسال الدبلوماسي النروجي هانس لونغوا الذي كان على صلة وثيقة بعرفات إلى بيروت كي يسأل الزعيم الفلسطيني عن رأيه في احتمال أن تصبح النروج مصدراً نفطياً رئيسياً لإسرائيل. وكان رد عرفات بحسب رواية المؤرخة: "إذا كنتم تريدون أن تصبحوا المصدر الرئيسي لتزويد إسرائيل بالنفط فهذا شأنكم، وفي أي حال أنتم أصدقاء إسرائيل. لكن بما أنني كريم جداً، وأبدي تفهماً كبيراً لكم أنتم النروجيون، فإنني أريد خدمة منكم في المقابل. إسرائيل ترفض أن تتحدث معي، ومشكلتي أنه ليس لديّ دولة مستعدة لأداء دور المسهّل أو الوسيط في قناة خلفية مع إسرائيل. أنتم، النروجيين، أفضل أصدقاء لإسرائيل، والإسرائيليون يثقون بكم، لذا أريد منكم أن تفتحوا قناة خلفية تسمح بمفاوضات سرية للسلام بين منظمة التحرير وإسرائيل." عاد لونغوا إلى أوسلو وبلّغ حكومته أن عرفات ليس مهتماً بالنفط، بل يطلب قناة خلفية للحوار مع إسرائيل. حكومة أوسلو أُصيبت بصدمة للوهلة الأولى لأنها لم تكن تتوقع مثل هذا الطلب الفلسطيني، ثم ما لبثت فكرة القناة الخلفية أن سلكت طريقها إلى التنفيذ.

الخلاصة التي تشدد عليها الباحثة النروجية، أن عرفات لم يكن معارضاً

للتحدث في موضوع السلام مع إسرائيل، وأن عملية إطلاق القناة الخلفية حدثت بفضل اقتراح من عرفات، ولم يكن تيري رود لارسون صاحب الفكرة، علماً بأن حزب العمال النروجي حاول مراراً في السابق بناء القناة الخلفية بين إسرائيل والفلسطينيين، لكن محاولاته هذه بقيت من دون جدوى بسبب رفض إسرائيل. وأثارت استنتاجات الباحثة موجة استياء واسعة لدى الحزب النروجي الحاكم "لأنهم كانوا يريدون قصة سحرية خيالية، ولم يكن هناك في الوقائع ما يفيد قصة من هذا النوع." حتى إن الأمين العام للحزب خرج عن طوره في لقاء عاصف مع هيلدي، وراح يصرخ في وجهها مؤنباً إياها على الإقدام على كتابة ما لا يجوز كشفه، وظن كثر في الحزب الحاكم في النروج أن لديها أجندة شخصية هي تدمير صورة النروج كصانعة للسلام، وكانت تردّ بأن هذا الاتهام باطل وينطوي على مبالغة خرافية لأن جل ما كانت تسعى له هو أن تصبح مؤرخة رصينة! إلاّ إن حالة الاحباط التي شعرت بها في ظل الأجواء العدائية، ثم التهديدات المتواصلة من المجموعات المؤيدة لإسرائيل، جعلتها تفكر في طلب اللجوء إلى السويد المجاورة.

في إثر هذه التطورات الدراماتيكية، وقعت وزارة الخارجية النروجية تحت وطأة ضغوط كبيرة، وكان الصحافيون يوجهون إلى المسؤولين المعنيين في الوزارة أسئلة محرجة: لماذا لا تدعمون أبحاث هيلدي هنريكسون فوجي وتعطونها المال الذي تستحقه لإكمالها؟ كما كانوا يسألونها عن سبب إحجامها عن الكتابة عن عملية أوسلو، وكان ردها الدائم: اتصلوا بوزير الخارجية واسألوه عن ذلك!

في ذلك الوقت تبيّن أن جميع الوثائق السريّة المتعلقة بدور النروج في عملية أوسلو اختفت من أرشيف وزارة الخارجية في أوسلو، فاضطرت هيلدي إلى تأليف كتاب: *'Peacemaking is a Risky Business: Norway's Role in the Peace Process in the Middle East, 1993-1996'* استناداً إلى فرضيات ومقابلات،[٧] وتوصلت إلى الاستنتاج أن إسرائيل بلّغت النروجيين في مفاوضات المرحلة الثانية من مفاوضات القناة الخلفية أن عليهم من الآن فصاعداً التزام الصمت المطبق، "لأن تل أبيب أدركت أنها في أوسلو يمكنها أن تحاصر الفلسطينيين وتنتزع منهم تنازلات أكبر كونهم ضعفاء وليس لديهم هناك أحد يساعدهم، وكون النروجيين يفاوضون على أساس المسلمات الإسرائيلية؛ نعم كان النروجيون يفاوضون بناء على القواعد الإسرائيلية للعبة. غير أن تيري رود لارسون كان يملك شبكة واسعة من الأصدقاء في المؤسسة الحاكمة، وكان على اتصال مستمر بالرأي العام عبر البرامج التلفزيونية، محاولاً تصوير أبحاثي على أنها نوع من الجنون، ومدعياً أنني لا أفهم، وأنني قادرة فقط على رواية قصص قديمة معروفة. كما طلب من أصدقائه في حزب العمل استهدافي بهجوم متواصل، فكنت في هذه الحال أتلقى الضربات من كل جانب باستثناء صحافة اليسار التي كانت تساندني. كان ذلك في سنة ٢٠٠٥ عندما راح العديد من النروجيين مثل أعضاء لجنة فلسطين (Palcom) ينشطون في دعم الشعب الفلسطيني مؤكدين شكوكهم في عدالة اتفاق أوسلو، إذ إن هذه الاتفاقية كانت بالنسبة إلى هؤلاء المناضلين بمثابة تظهير علني لشكوكهم منذ فترة طويلة."

في النهاية تعترف هيلدي هنريكسون فوجي بأن هذه التجربة كانت صعبة بالنسبة إليها على الصعيد الشخصي، لكنها أكسبتها الشهرة، وظلت المقابلات معها تصدر في مختلف وسائل الإعلام طوال أعوام؛ وتستدرك أن المؤسسة الحاكمة والزعماء البارزين في الحكومة ما زالوا يعتقدون أنها الناشطة المتطرفة المؤيدة للفلسطينيين، وأنها تتجرأ على تدمير صورتهم بناء على توجيهات ربما من حركة "حماس". لم يعد هناك تمويل لأعمالها البحثية من الحكومة، لكن من جهة أُخرى صارت معروفة في جميع أنحاء البلد، الأمر الذي يجعلها تعتقد أنه بات من الصعب التعرض لها من جانب كبار المسؤولين الحكوميين، كما صار صعباً على المجموعات المؤيدة لإسرائيل أن تتهمها بمعاداة السامية. وباتت هيلدي تحظى أيضاً بمساندة الأكاديميا وتأييد أوساط الباحثين، وترى مقالاتها منشورة في أمهات مجلات الأبحاث الرفيعة في العالم، وتحوز أخيراً درجة الأستاذية في جامعة أوسلو.

إذا كان الأمر يتعلق بمدرسة التاريخ النقدي، فإنه يجب أن يبقى للتحفظ هامشاً معيناً، نظراً إلى الصراع الذي كان دائراً حول إسرائيل داخل مؤسسة الخارجية النروجية، وإلى التطور المتدرج الذي طرأ على السياسة النروجية منذ عدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧ لغير مصلحة السردية الإسرائيلية، والذي سيؤدي إلى انقلاب في النظرة إلى الفلسطينيين عقب الانتفاضة الأولى في سنة ١٩٧٨، وإدراك الرأي العام النروجي لمعادلة داود / جوليات، والنتائج المترتبة على السلوك العدواني الإسرائيلي في فلسطين المحتلة والشرق الأوسط.

الصمت النروجي المريب

المرافعة القوية للمؤرخة العنيدة، أعادتني مجدداً إلى قصة الصمت المريب المحيط بفشل عملية أوسلو. عدت إلى أوراقي، وكنت سألت عن الظروف والطريقة التي حكمت إعلانها موت عملية أوسلو، فأجابت أنها صرّحت إلى وسائل الإعلام منذ بداية العملية، أن هذه الصفقة لا تساهم سوى في تشديد قبضة الاحتلال الإسرائيلي، وتمنح الفلسطينيين حرية أقل مع مرور الزمن، وتغلق آفاق آمالهم في المستقبل. وأوضحت أنه استناداً إلى الطريقة التي كانت تجري بموجبها المفاوضات، لم يكن ممكناً التوصل إلى أي سلام، لأن المحتل الإسرائيلي هو الذي كان يقرر قوانين لعبة التفاوض. لم أكتف بهذا الجواب، وسألت مجدداً عن أسبابَ امتناع السلطات النروجية من الاعتراف بفشل عملية أوسلو، وفاجئني تعليق هيلدي أنها كانت ساذجة جداً بطريقة ما "لأنني اعتقدت في سنة ٢٠٠٤ أن الناس جميعاً عرفوا أنه لم يكن على الأرض سلام، بل عكس ذلك، وتصورت بالتالي أن كتابي بشأن مخاطر عملية السلام لن يثير ضجة كبيرة. كنت مخطئة في هذا التقدير لأن منذ بداية سنة ١٩٩٠ قامت الحكومة بتوظيف استثمارات كبيرة في عملية صنع السلام في فلسطين/ إسرائيل وكولومبيا وغواتيمالا وهايتي ومنطقة البلقان وفي أنحاء أُخرى من العالم. كانت هذه العملية في نظر الحكومة مسألة تتعلق بالهيبة السياسية. وحدث أنني كنت الوحيدة في النروج التي طرحت أسئلة جدية: أي نوع من السلام هذا؟ ماذا تفعلون أيها الحكام؟ أين ذهبت الملايين وماذا أنجزتم بفضلها؟ واعتبروا أن دينامية هذه الأسئلة تقود إلى تدمير إنجازاتهم،

وتالياً صورتهم في العالم."

عندما نأتي إلى الموضوع الخطر المتعلق بالمسؤولية والمحاسبة، تذهب المؤرخة بنبرة هادئة إلى "أن هناك أطرافاً متعددين يمكن تحميلهم مسؤولية الفشل في تحقيق السلام في فلسطين. أولاً، كان النروجيون يعتقدون أن عملية أوسلو يمكن أن تكون أفضل الطرق إلى السلام، وأعتقد أنهم كانوا يؤمنون بصدق أنه يمكن إنجاز شيء ما في النهاية، لكنهم كانوا يتصورون أنهم قادرون على ابتلاع جمال عدة في وقت واحد، على ما يقول المثل النروجي الشائع، الأمر الذي دفعهم إلى القيام بالعديد من المساومات. حجتي هنا أنه كان عليهم أن يدركوا أن هذه العملية مستحيلة، لأنها كانت معدّة لحماية إسرائيل، ولم يكن الفلسطينيون قادرين على مجاراة التفوق الإسرائيلي عندما يتعلق الأمر بالتفاوض بشأن التكتيكات والقانون واللغة الإنجليزية، ففي هذه المحاور كلها كان الفلسطينيون في موقع ضعيف، ولم يكن لديهم حتى الخرائط الضرورية. لقد حاولوا، لكن الإسرائيليين كانوا الأقوى وأظهروا تفوقاً. ثانياً، هل يجب انتقاد الفلسطينيين، وخصوصاً عرفات وفريقه، لعدم إدراكهم ما كانوا يفعلون؟ أنا مؤرخة وأتصور أن عرفات والقيادة الفلسطينية كانا في وضع ضعيف بسبب حرب الخليج وعوامل اقتصادية وسياسية أُخرى، وقد بلغ الضعف بهم حداً جعلهم يتصورون، مثل النروجيين، أن هذه خريطة طريق يمكن أن تكون بداية شيء. لم يكن بالأمر السهل أن تكون في وضع عرفات وفريقه في ذلك الوقت لأنه لم يكن لديهم كثير من الخيارات، ولذلك كانوا ميالين إلى التجريب وركوب المجازفة بصفتها أفضل الخيارات."

كيف ترى هيلدي هنريكسون فوجي مستقبل القضية الفلسطينية في ضوء صعود اليمين القومي الديني في إسرائيل، وانفلات سياسة الاستيطان الصهيوني الكولونيالي في الضفة الغربية المحتلة؟

تقول: "كوني منشغلة بعلاقات القوة بين إسرائيل وفلسطين، وأدرس العبرية شهرين في العام في القدس كي أتمكن من قراءة الأرشيف الإسرائيلي، أشعر بالإحباط الشديد بسبب انفلات الاستعمار الاستيطاني ولا أرى أي أفق للحل في الوقت الراهن، وأعتقد أن السياسيين الإسرائيليين يصرون على استبعاد أي مخرج للحل باستثناء إدارة النزاع. الحقيقة أن هذه استراتيجيتهم في المدى الطويل."

إذا كان لا بد من خاتمة ولو طالت القصة النروجية لملوك المجوس الشماليين يقودهم النجم القطبي إلى فلسطين، فهي أن المستوى الرسمي في دولة القانون والرفاه النموذجية، ما زال يتحدث عن اتفاق أوسلو والسلطة الفلسطينية باعتبارهما أمراً واقعاً، كأننا على طريق قيام دولة فلسطينية. بعبارة أُخرى، إن النروج الرسمية تتصرف كأننا ما زلنا في سنة ١٩٩٦، وتعيش على وهم أن اتفاق أوسلو هو أكبر نجاح للسياسة الخارجية، بينما جميع الخبراء في شؤون الشرق الأوسط يعرفون أن عملية أوسلو أسفرت عن أوضاع كارثية للشعب الفلسطيني على الأرض. الاعتراف بالفشل يعني أن المبالغ الخيالية التي تكبدتها النروج ذهبت هباءً، ولذلك تمتنع السلطة من الاعتراف بالفشل لأن الرأي العام النروجي سيحاسب المسؤولين، ويسأل عن سبب صرف هذه الأموال كافة. والأهم من ذلك أن صورة النروج النمطية كوسيط في جهود السلام، هي أمر تحرص الدولة على الحفاظ عليه وتطويره باعتباره عنوان السياسة الخارجية وإن كانت المشكلة قائمة وهم يدركون ذلك، فقد فشلوا في فلسطين، والعالم كله شاهد على ذلك.[٨] ■

المصادر

١ مفهوم "الدبلوماسية المتخصصة" (Niche Diplomacy)، يعني أن السياسة الخارجية لدولة ما تختص بحقل سياسي معين كصناعة السلام على سبيل المثال، أو بمشاكل منطقة جغرافية محددة كالشرق الأوسط مثلاً.

٢ إن مناقشاتي مع الأصدقاء أويفند ساغيدال وإيبا فيرغلاند وكاي كفرمي وآرني أويروم فتحت عيني على أبحاث مؤرخين مثل: غير لوندستاد، وجاين كوربين، وألان هارت، وهيلغه فارو، فضلاً عن الأبحاث الأساسية للمؤرخة هيلدي هنركسون فوجي.

٣ الدراسة بالإنكليزية بعنوان:
When the State of Israel was born: A Matter of Political Conflict in Norwegian Policy, 1945-49.

٤ العنوان الكامل لأطروحة الدكتوراه بالإنجليزية:
Norway–Israel's Best Friend: Norwegian Middle East Policy, 1949-56.
المصادر الرئيسية التي استندت إليها الأطروحة هي: وثائق سرية وأُخرى غير سرية في وزارة الخارجية النروجية؛ تسجيلات لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان النروجي؛ أرشيف حزب العمل النروجي؛ وثائق من وزارة الخارجية الأميركية ووزارة الخارجية البريطانية.

٥ جاء تيري رود لارسن إلى منطقة الشرق الأوسط بفضل زوجته مونا يول التي كانت تتولى منصباً بارزاً في السفارة النروجية في القاهرة. وخلال الفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ تولى لارسن، بصفته مديراً لمعهد العلوم الاجتماعية التطبيقية في أوسلو (FAFO)، مشروع أبحاث في الضفة الغربية وقطاع غزة متعلقاً بأوضاع الفلسطينيين الحياتية، ووظّف هذا المشروع كي يكون الغطاء المطلوب لقناة أوسلو السرية بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

٦ انظر:
Hilde Henriksen Waage, Norwegians? Who Needs Norwegians? Explaining the Oslo Back Channel: Norway's Political Past in the Middle East (Norway: Royal Norwegian Ministry of Foreign Affairs, 2000).

٧ اقتصرت المصادر على أرشيف وزارة الخارجية النروجية، والأرشيف الوطني النروجي، وأرشيف الحركة العمالية (أوسلو)، وأرشيف معهد نوبل للسلام، والأرشيف الوطني في واشنطن، ومكتب الأرشيف العام في لندن، وأرشيف الاشتراكية الدولية (١٩٤٦ ـ ١٩٨٣) في أمستردام، بينما شملت المجموعات الواسعة من المقابلات: حيدر عبد الشافي؛ بسام الشريف؛ موشيه أرينز؛ حسن عصفور؛ حنان عشراوي؛ جيمس بايكر؛ يوسي بيلين؛ يان إيغلاند؛ يسرائيل غات؛ يائير هارشفيلد؛ مونا يول وتيري رود لارسن؛ صامويل لويس؛ هانس لونغوا؛ عمرو موسى؛ شمعون بيرس؛ دينيس روس؛ يتسحاق شمير؛ روبرت مورفي؛ وليم كوانت؛ جورج شولتز؛ تورفالد شتولتنبرغ.

٨ استندت هذه الخاتمة إلى مناقشة مع الدكتور كاي كفرمي الخبير بشؤون الشرق الأوسط.